

المسيحيون واليهود

فى التاريخ الإسلامى العربى والتركي

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: كاميليا صبحي

- العدد: 2147
- المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي
- فيليب فارج، ويوسف كراج
- بشير السباعي
- اللغة: الفرنسية
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:

Chrétien et Juifs dans L'Islam Arabe et Turc

Par: Youssef Courbage et Philippe Fargues

Copyright © Librairie Arthème Fayard, 1992

Arabic Translation © 2013, National Center for Translation

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة
شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

المسيحيون واليهود

فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى

تأليف : فيليب فارغ

يوسف كرجاج

ترجمة : بشير السباعى



2013

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

فارج؛ فيليب

المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى
تأليف: فيليب فارج - يوسف كبراج: ترجمة: بشير السباعى
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٣

٣٢٤ ص؛ ٢٤ سم

١- المسيحية والديانات الأخرى

٢- الإسلام والديانات الأخرى

(أ) كبراج، يوسف (مؤلف مشارك)

(ب) السباعى، بشير (مترجم)

(ج) العنوان

٢٧٦،١٢

رقم الإيداع ٢٠١٢/١٥٩٨٩

الترقيم الدولى 8-036-718-977-978-I.S.B.N.

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

كلمة من المترجم

على مدار السنوات السبع عشرة الماضية، شكّل هذا الكتاب المصدر الرئيسي لباحثين ديموغرافيين عرب جادين، لكنه، خاصة مع نفاذه، تعرض لانتحالات غريبة من جانب سياسيين وإيديولوجيين تافهين قدموا أنفسهم في صورة باحثين(!)، وقاموا - في سياق الانتحال - باحتراءات وتفسيرات مريبة لا تكشف إلا عن تحيزاتهم المشبوهة.

وبالنظر إلى هذا الواقع المحزن، من ناحية، وإلى أهمية توافر الكتاب من جديد أمام جمهور قارئ جديد لم يسبق له الاطلاع عليه، من ناحية أخرى، فإن صدور طبعة جديدة منه إنما يمثل خطوة في الاتجاه الصحيح لا أملك سوى التوجه بالشكر إلى المركز القومي للترجمة على اتخاذه لها.

بشير السباعي

31 أكتوبر 2011

إلى القارىء

يمثل هذا البحث المهم أول محاولة علمية لتناول مجمل التاريخ الديموغرافى للمسيحيين واليهود فى عالم الإسلام العربى والتركى منذ بدايات الدعوة المصمديّة وحتى الآن .

ويكشف هذا التاريخ عن ديناميات ازدهار واهتملال المسيحيين واليهود على خلفية تاريخ ازدهار واهتملال الدول التى عرفها عالم الإسلام العربى والتركى ومستويات ضغط الغرب على هذا العالم .

والواقع أن هذا البحث إنما يمثل فى الوقت نفسه محاولة لتناول تاريخ انتشار الجماعة الإسلاميّة على مدار زمن طويل . وهو يشكل إسهاماً مهماً من هذه الزاوية كذلك .

ويكشف البحث عن تعرجات تاريخ الجماعات المسيحية واليهودية والمسلمة تبعاً للتحوّلات التاريخيّة السياسيّة والاجتماعيّة - الاقتصاديّة والإيديولوجيّة التى أثرت على تطوّر عالم الإسلام العربى والتركى .

ويبين مسار هذه التحوّلات ونتائجها أسباب تباين وتداخل مصائر هذه الجماعات على مستويات عديدة .

وتظل رسالة هذا البحث الضمنية هى أن ازدهار الجماعات السكانية المكوّنة لعالم العرب والأترّك إنما يتوقف على اقتحام ساحة تاريخيّة جديدة أساسها الإنصاف والإخاء بين البشر؛ وهى رسالة ما أحوّجنا إلى بذل كل جهد من أجل تحويلها إلى واقع .

القاهرة، ٢٧ مارس ١٩٩٣ .

بشير السباعي

إهداء الترجمة

إلى زملائي السابقين فى مدرسة الفرنسيسكان الابتدائية
الذين لا أدرى ماذا فعلت بهم الأقدار:
جميل ... المسيحى،
إنوار... اليهودى،
محمد طلعت، الذى تقاسمت معه تحسس غيابهما بسبب
درس الدين

ب. س.

تهييد

يبدو أن مواجهة قديمة ذات تفجرات متكررة، تنبعث من جديد منذ الإطاحة بالأسرة الحاكمة اليهلولية في إيران (١٩٧٩) وصحوة إسلام سياسي يجاوز القوميات. فمن جديد، تبدو كثلتان: المسيحية والإسلامية، عصيتين على التصالح. وإسلام البحر المتوسط، منظوراً إليه من الشمال، يبدو أيضاً مهيمناً، بلا منازع، على مجتمعات الجنوب. ولكن هل يرجع كل هذا التجانس وكل هذا الدوام إلى ليل الأزمنة؟

إن إنسان أوروبا اللاتينية المهذب، المغمور في الحاضر، يتصور التوسع الإسلامي بوصفه فتحاً خاطف السرعة للسلطة السياسية وللمعتقدات الدينية على حد سواء. لكن الأمر تطلب قرابة ألف عام حتى يتسنى للإسلام الفوز تدريجياً بولاء السكان الذين ينتمون إليه اليوم. وهذه الأعوام كانت بعيدة عن أن تكون زمن إكراه وعنق متواصلين. كما أن الأسلمة لم تكن قط شاملة. إن سلسلة من الطوائف غير المسلمة تواصل الحياة والحوار، بل وتزدهر في الشرق العربي.

والواقع أن الفاتحين الذين سوف يخرجون من شبه الجزيرة العربية في القرن السابع سوف يصوغون تصوراً عن العالم يقسمه إلى عالمين. ففي البلدان التي سيجتلبونها، سوف يمنحون أهل الكتاب وضعية المحميين. أما باقى العالم فهو يعتبر ساحة الحرب الممكنة. وأولئك الذين ينزلون منه غزاةً، مسيحيين كانوا أم يهوداً، يصبحون أعداء للإسلام. وهكذا فإن توسيع الأراضى المفتوحة ونشر الدين فيها يخضعان لمنطقين مختلفين. والواقع أن المهمة الأولى وحدها هي التي تعبى جميع الطاقات. وسوف تتساند آلة الحرب والأنوات الحقوقية للتعايش الطائفي في بلاد الإسلام. فلا شك أن مال الفلاح القبطى والراهب اليعقوبى والحرفى اليهودى الملزمين بأداء ضريبة رأس، إن كانوا يريدون التمسك بديانتهم، كان حيويماً لتوسيع ولتوطيد أركان الإمبراطورية. لكن الدين الجديد يكسب الأذهان والسكان شيئاً فشيئاً.

عبر أية آليات؟ عمليات التحول إلى اعتناق الدين الجديد، أولاً، والتي سوف تمتد على مدار الأعوام الألف الأولى. فالسكان سوف يتأسلمون بفضل الفرص على نحو أكبر بما لا يقاس مما بفضل الإكراه. وكان هناك ثانياً الزواج، وهو تعاقد سلمى بامتياز: فهو يؤدي إلى

انتشار الإسلام الذي تنتمي إليه، بحكم الشريعة، ثمار زواج مسلم من كتابية. وأخيراً، فإن الديموغرافيا التفاضلية للطوائف تدخل إلى المسرح في مستهل القرن العشرين. وفي أيامنا، فإنها وحدها تواصل العمل لمصلحة الإسلام في المجتمعات المتعددة الطوائف في الشرق. ونرى من هذا التعداد للكليات أن المذابح والترحيلات الإجبارية لا تظهر بينها. ومن المؤكد أنها تحدث في هذا المكان أو ذاك، لكن أيأ منها لن يتميز باتساع جد كبير قبل مولد تركيا الحديثة.

وقد استغرق إقرار الإسلام في الشرق العربي (الفصل الأول) تسعة قرون: من الهجرة إلى سقوط الممالك. وفي بادئ الأمر، كانت عدة قبائل مسلحة قد تمكنت من نحر أقوى لواتين آنذاك: بيزنطة وفارس. ولما كان عدد رجالها قليلاً بشكل يدعو إلى السخرية قياساً إلى الجماهير التي سوف يحكمونها، فقد كان عليهم الفوز باعترافها بهم. وقد أتاحت النزاعات الدينية التي مزقت صفوف المسيحيين أرضية مؤاتية للفاتحين الجدد. وقد أدت الوضعية التي سوف يخصصونها للمسيحيين واليهود في أن واحد إلى تقنين العلاقات فيما بين الطوائف. وهذه الوضعية، المزوجة في آثارها، تسمح للطوائف الدينية بتكريس نفسها، لكنها تشجع في الوقت نفسه عمليات التحول إلى الدين الجديد. وسوف يتكشف أن النواة التي توأصل العيش غير قابلة للمحاء. وكان يمكن للتاريخ أن يدور بشكل مماثل في الغرب، لكن أفريقيا الشمالية، خلافاً لذلك، سوف تنزع عنها طابعها المسيحي بشكل تام (الفصل الثاني). فالغرب، البعيد عن القلب الجغرافي للإسلام، سرعان ما سوف ينقسم إلى كيانات صغيرة لها صبغات أمم أولية، ومن ثم قدرة على تحقيق التجانس. وهو باجترائه على أوروبا، يصبح شاهد وقوة الصدام الأمامي الكبير الأول مع الجماعة المسيحية اللاتينية لزمناً إعادة الفتح (الإسبانية). وعندئذ تنتقل بقايا المسيحيين المحليين إلى الإسلام.

والواقع أن الجماعتين المسيحتين، اللاتينية والبربية، سوف تتجاوران لأول مرة خلال الحروب الصليبية (الفصل الثالث). أما تحفظات الجماعة المسيحية البربية تجاه الجماعة المسيحية اللاتينية، والإزعاجات التي كانت معرضة لها من جانب الجماعة المسيحية اللاتينية، والتي كان من المفترض مع ذلك أن تمد لها يد العون، فإنها سوف تسمح باجتياز هذا الصدام الثاني دون قطيعة مع الإسلام الذي أصبح دين الغالبية. على أن الحدث ينتهي بالمحنة التي يفرضها على الجماعة المسيحية الشرقية إسلام أصولي، فيختزل عدد المسيحيين ونفوذهم. أما المواجهة الثالثة والأخيرة بين الإسلام والجماعة المسيحية اللاتينية فسوف يكون مسرحها هو المغرب الكولونيالي (الفصل الرابع). والواقع أن الاستعمار الفرنسي، وهو هيمنة أخرى كبيرة

على الإسلام في أرضه، سوف يكون له حضور أقل استمرارية بكثير من حضور الممالك اللاتينية. على أنه، خلافاً لهذه الأخيرة، سوف يترك بصمة ثقافية ولغوية تزداد عمقاً، بعد ثلاثين عاماً من زواله.

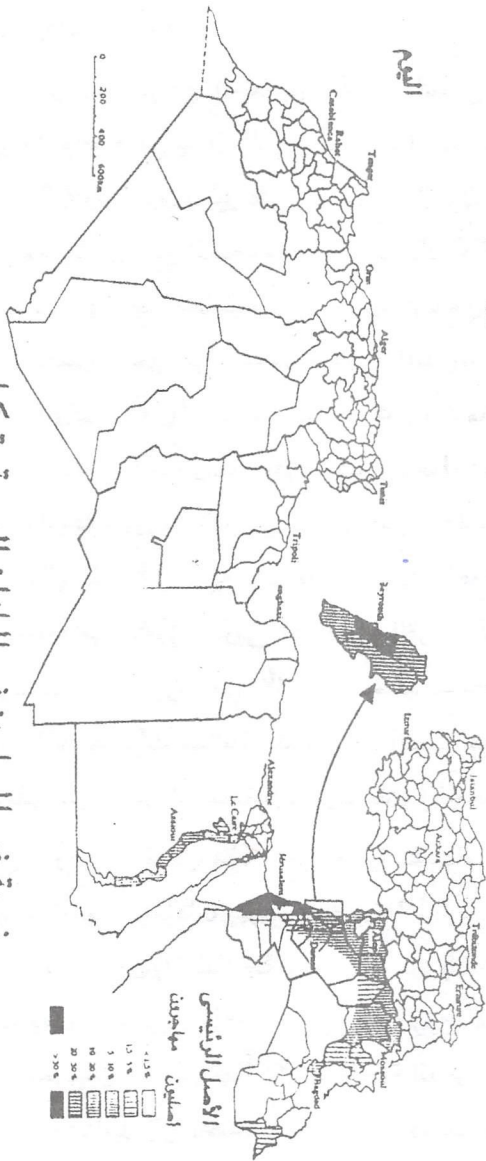
وعندما يجتاح العثمانيون الشرق العربي بعد فتحهم البلقان، فإنهم سوف يكونون مزودين بخبرة في مجال الحوار بين الطوائف، وسوف يسمحون بنهوض للجماعة المسيحية العربية غير مسبوق ومثير على حد سواء (الفصل الخامس). ولما كانوا مؤسسين لإمبراطورية، فإنهم سيسعون إلى السيطرة، لا إلى الامتلاك، أو إلى تجريد الأمور مما استوت عليه طبائعها. فمعد دخولهم القسطنطينية، سوف يعترفون بوجود جماعى للأقليات الطائفية، برقمها البعض إثر البعض الآخر إلى مصاف «الأمم» (الملل)، ويمنحها استقلالاً ذاتياً لتصرف شؤونها الدينية والحقوقية والثقافية والصحية. ولأول مرة منذ بيزنطة، تجد هذه الأقليات نفسها موحدة ضمن عالم تبادلات واحد. وفي تركيا (الفصل السادس) سوف يعيد العثمانيون صوغ بلد كانت أربعة قرون من الفوضى قد أدت إلى ضعفة المسيحيين فيه. وجنباً إلى جنب اليهودية، في ظل المبدئية السنية السلطانية، تشهد الجماعة المسيحية نهوضاً مساوياً في اتساعه لنهوضها في الشرق العربي. لكن الدولة القومية التي سوف تنهض على أنقاض الإمبراطورية سوف تحسم مصيرها في الأناضول حسماً سريعاً، فالأمة التي يتصورها محرکوها يجب لها أن توحيد جماعات سكانية متماثلة إلى أقصى حد ممكن. وفي غضون عقد ماساوى سوف تختفى الجماعتان المسيختان التاريخيتان، الأرمنية واليونانية.

وعلى أنقاض هذه الإمبراطورية نفسها، في اتجاه الجنوب، وبعد ذلك بوقت قصير، سوف تؤسس جماعات يهودية دولة قومية أخرى. ولما كانت هذه الجماعات قادمة من جهات أخرى، من أوروبا المسيحية ومن عدد من بلدان الإسلام، فإنها سوف تذكر بالاختراقتين السابقين، الصليبي والاستعماري. وفي وجه إسرائيل، سوف يجد المسلمون والمسيحيون الفلسطينيون أنفسهم ككتف لمواجهة الهجرة بالديموغرافيا (الفصل السابع). ومن أدنى أجزاء إسرائيل إلى أقصاها، يستقطب اليوم محوران التنوع الطائفي. وعلى طول النيل وعلى منافذ الشام البحرية، تمس المسيحية العربية منذ ذلك الحين منحى دائرتها الهابط (الفصل الثامن). فالتقدمات الاجتماعية التي سبق لها أن رفعتها إلى أعلى تكبحها، بعد أن أصبحت الأسرة المحدودة العدد سمة من سماتها. ومع اتساع التحول الحضري، تحد الجغرافيا من مجالها، لكن الاقتصاد يوسعها.

نحو من العرب العالمة الأولى



البحر



نسبة غير المسلمين في البلدان العربية وتركيا

وهذا التاريخ ليس مجرد تاريخ لتعاقب ديانات تدعو إلى وحدانية الرب، فهو أيضاً تاريخ سلسلة من الاختراقات الصاخبة أو الصامتة. فمن فرسان الإسلام ويبدو شبه الجزيرة العربية إلى الصليبيين، ومن المغول إلى الأتراك، ومن الأوروبيين - اللاتينيين إلى (اليهود) الأشكنازيين، تقدم جميع هذه الأحداث شيئاً غريباً في استهلالها. فالقادم الجديد، الذى يشكو دائماً من نونية ديموغرافية جسيمة، يستولى على السلطة، والموجة التالية تسلك طرقاً جد مختلفة. وتصبح بعض الأقليات الأغلبية، أو الكافة ببساطة تماماً، بحكم توسع ثقافى، وليس ديموغرافياً. فمن هو التونسي الذى يحس اليوم أنه غير عربى؟ ومن هو الأناضولى إن لم يكن تركيا؟ وسوف ينوب بعضها الآخر من الناحية السوسيوولوجية فى الجماهير التى كان قد أخضعها من الناحية السياسية. والبعض الثالث، أخيراً، سوف ينزح أو يهلك. وكلهم، مع تباين طفيف فى الظلال، يصلون مسلحين بدين وبلغة.

ومع احتمال تلقى الإرث الثقافى للشعوب المفتوحة، سوف ينشر العرب والأتراك الاثنيين. أما الأوروبيون، الصليبيون والكولون، فإنهم لن يفكروا فى ذلك، أو لن ينجحوا فى تحقيقه، بحيث إنهم سوف يحتفظون بهذه وتلك لأنفسهم. والانفصال هو الثمن. وفى نهاية المطاف سوف يجرى رفضهم. والتجربة الثالثة لرفض الامتزاز لا يزيد عمرها عن خمسين عاماً. فهى جد قصيرة بحيث يتعذر تأمل مستقبلها، لكنها كافية لرصد ما تتطوى عليه من مستجدات. فالصليبيون والكولون ظلوا أقلية فى الأرض التى يحكمونها، فى حين أن اليهود يتمتعون بأغلبية كبيرة فى داخل حدود إسرائيل المعترف بها. ومن ثم فإن الحوار المتصور سوف يتكشف أنه حوار علاقات بين قوميات باكثر مما هو حوار علاقات بين طوائف.

أما الجماعة المسيحية المحلية التى كانت من قبل أغلبية فهى تصبح أقلية توامل البقاء فى هذا المكان أو ذاك، بينما تتلاشى فى أماكن أخرى. وليست المسألة مسألة مصير محدد بشكل لانفكاك منه، بل هى بالأحرى مسألة توليفات فريدة من عدة عناصر ثابتة. فالانتماء إلى الأرض قد خلع على هؤلاء المسيحيين من زمن ما قبل الإسلام انفراساً لا تستطيع الجماعة المسيحية المستوردة الاعتزاز به. وسرعان ما سوف يئدى تقارب أساليب الحياة والأعراف الاجتماعية إلى تميم التعايش. وكان تبنى لغة الفاتح، العربى أو التركى، حاسماً بالنسبة للتبادل. ومن المترجم النسطورى إلى الموسوعى المارونى، ما أكثر المواهب التى سوف تشهد على الاحترام المتبادل بين اللغة التى حملت الإسلام، العربية، والديانة التى وجدتها: المسيحية! وسوف يكون الولاء للدولة ورفض الولاء للأجنى رصيماً مهماً آخر. والطوائف لا تقى كلها ودائماً بهذه الشروط المتنوعة.

وصحيح أن الأتليات الطائفية لن تكون لها الهيمنة التامة على مصيرها. فالتسارعات العظيمة لانحدار الجماعات المسيحية المحلية سوف تتبع كلها اقتحاماً قوياً من جانب أوروبا، على الرغم من غياب تحالف أكيد. وسوف تجد كل مواجهة امتداداً لها على شكل تجدد للأصولية الإسلامية. تطهيرية الموحدين والانتصارات الأولى لإعادة الفتح (الاسبانية)، التشدد الملوكي ومغامرة الحملات الصليبية، جامعة السلطان عبد الحميد الإسلامية وإذلال الإمبراطورية في المغرب والبلقان، الصعود الحالي لإصولية إسلامية جديدة وإنشاء إسرائيل: فبعد فترة من الكمون، يعقب ردُّ الفعلِ الفعلِ. وسوف تتوافق هذه الاندفاعات لتجذر الدولة والمجتمع كلها، بشكل أو بآخر، مع تراجع للأتليات المسيحية. على أن التاريخ أثبت مرة، خلال القرون العثمانية الأربعة، أن الوثوب يمكن أن يتلو التراجع. ومن ثم فإن الانكماش الذي تعرفه الجماعات المسيحية العربية منذ تقسيم الشرق إلى أمم قد لا يكون هو الآخر غير كسوف مؤقت.

شكر وتقدير

يشكر الكاتبان المعهد الوطني للدراسات الديموغرافية ومركز الوثائق التابع له اللذين أتاحا لهما إمكانية كتابة هذا الكتاب.

ويشكر الكاتبان والمترجمُ السيد سعد القدرى الترجمان على ما قدمه من ملاحظات مفيدة.

الفصل الأول

قيام الإسلام في الشرق العربي

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبدُ الله عمر أمير المؤمنين أهلَ إيلياء من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئتها وسائر ملتها؛ أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُتَّقَص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم. ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم. ولا يسكنُ بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يُعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الرّوم واللصوت؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم؛ ومن أقام منهم فهو آمن؛ وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحبّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الرّوم ويخلى بيّهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيّهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية».

مقتطف من معاهدة استسلام القدس (٦٣٣)، التي لونها

الطبرى، تاريخ الرسل والملوك (٩٢٣) (١).

كانت مكة تضم على الأكثر بضعة آلاف من السكان حين جاء الوحي إلى محمد هناك.

وعلى امتداد مئات من الكيلو مترات حولها، كانت الصحراء تعزل المدينة، مرغمة إياها على اجتياز أفق من الكثبان الرملية، وعلى دفع قوافلها في بحث دائم عن أسواق نائية. وقد سلك النبي هذه الطرق نفسها، ولكن سعياً وراء تحقيق مطمح آخر: توحيد جماعة البشر. وإذا كان قد عاش بما يكفى لإرساء أسس دولة دينية، فإنه لم يتح له الوقت لمد سلطتها إلى خارج شبه الجزيرة العربية.

وغداة موته (٦٣٢)، سوف يشيد خلفاؤه، «الخلفاء»، إمبراطورية ذات مقاييس عالية تمتد من نهر الإندوس إلى المحيط الأطلسي. وقد تم ذلك على أيدي حفنات قليلة من المحاربين اليبو. وكان الضعف الديموغرافي البالغ لقاعدة انطلاقهم مصدر قوة لهم. ففي فرضهم لسلطة الإسلام على جماعات سكانية أوفر عدداً بكثير، كانوا مضطرين إلى الاستناد إلى السكان المحليين بدلاً من النخول في صدام سافر معهم، ومن ثم كانوا مضطرين إلى التصالح مع أفكار مختلفة عن أفكارهم.

ومن بين هذه السمات الحضارية الأجنبية، كان الدين هو السمة الأعمق تأصلاً في هوية المجتمعات المفتوحة. ومنذ الاختراقات العسكرية الأولى، كان على محمد العثور على طريقة للتعاشيش الطائفي مع اليهود والمسيحيين الذين صادفهم. والواقع أن المبادئ المقررة في حياته سوف تصبح قواعد يلتزم بها الفاتحون وقادة الدولة المسلمون، بجرعة متغيرة من الوفاء.

وبعد إخراجه من مكة، أقام النبي في المدينة، حيث حاول في البداية تدشين المساواة التامة بين رفاقه والجماعة التي استقبلته: «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم». لكن تهكمات اليهود على الوحي القرآني سرعان ما سوف تتحول إلى عداوة سافرة، ويطردهم محمد من المدينة، التي تصبح منذ ذلك الحين مسلمة.

وعندما يدخل النبي من جديد في اتصال مع أهل الكتاب، فإنه يدخل فيه بوصفه محارباً وغالباً لهم في نهاية الأمر. وقبل شن الهجوم، كان من عادته أن يعرض عليهم اختيار مخرج من بين ثلاثة مخارج: التحول إلى اعتناق الإسلام، أو دفع جزية أو الحرب حتى الموت. وفي الحالة الأولى، يتزايد عدد المؤمنين على الفور. وفي الحالتين الأخريين، يصدر عهداً (معاهدة)، أكان ذلك في موقع المعركة أو بعدها، يحدد شروط إنعان المسيحيين واليهود، وهم غير المسلمين الوحيديين المسموح لهم آنذاك بالاحتفاظ بديانتهم. وهذه المعاهدات، المصاغة وفق نموذج واحد، تفرض على الذميين، «محميي» الإسلام، عدداً معيناً من الالتزامات. وعلى مر الأجيال، سوف تنثى العدد الأكبر عن الاحتفاظ بديانته.

ومن الأقصر إلى الإسكندرية، ومن عكا إلى حلب، يرسم محوران الخط الذي ما يزال ينبض فيه قلب جماعة مسيحية عربية. فهذه الجماعة المسيحية، المتمردة منذ زمن غابر الزمان على إملات الكنائس الأم النائية، روما ثم بيزنطة، تدين بالبقاء للحوار الذي تمكنت في أغلب الأحيان من إقامته مع الدولة الإسلامية، وإلى قدرتها الحاذقة على التوفيق بين الولاء القومي والإخلاص لدينها. على أن طوائفها المحلية سوف تجتاز مفازات التاريخ الشاسعة منعزلة بعضها عن البعض الآخر. وهكذا تتشكل الخصوصيات العديدة لكنائس الشرق ولأتباعها. وعلى ضفاف النيل كما على ضفاف نهر العاصي، يحمل الجميع بصمة محلة ريفية أو مدينة. وغالباً ما كان البلدان مرتبطين، مصر بوصفها صاحبة السيادة وسوريا بوصفها تابعة. ومن فراعنة الإمبراطورية الجديدة إلى الرئيس جمال عبد الناصر، صاغت تقارباتهما عدداً من أعظم لحظات التاريخ.

وخلال إحدى هذه اللحظات تأسس الفكر الداعي إلى وحدانية الرب: الديانة المابرة والمبشرة بما سوف يكون في آن واحد والى دعا إليها إخناتون الثاقب البصر، ثم اليهودية^(٢). أما القرون التسعة التي تفصل بين الفتحين العربي والعثماني، فهي أطول هذه الفترات التي تعرف فيها مصر وسوريا مصائر، إن لم تكن مترابطة، فهي متوازية على الأقل. فمنذ الشطر الثاني للقرن التاسع، وسط ملكوت خلافة العباسيين الواسع، تتشكل أرض تربط النيل بالفترات وتضع الأماكن المقدسة في فلسطين تحت سلطة مصر. والأجانب هم الذين ينجزون ذلك الاتحاد؛ فأحمد بن طولون (٨٦٨ - ٨٨٤)، وهو ابن عبد تركي، جند هو نفسه في جيش الخليفة، يمد سلطة مصر إلى تخوم قيليقيا. والمنشقون القادمون من أفريقية (تونس)، الفاطميون (٩٠٩ - ١١٧١)، يجنون التركة ويخلفون لمصر عاصمة، هي القاهرة، وللبنان نصف شخصيته: الطائفة الدرزية. ثم يجيء إليهما موحد ثالث من العراق، هو الكردي صلاح الدين (١١٧١ - ١١٩٣)، غالب الفرنجة إلى حين. أما المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧) أخيراً، وهم سلالة حاكمة غربية بلا نسب، تنحدر من أجناد عبيد تم شرائهم في أسواق وسط آسيا، فسوف يعيدون تكوين الإمبراطورية.

وهذه الحوادث التوحيدية لاتمحو خصائص البلدين جد التمايزين اللذين نعرفهما اليوم. على أنها قد أعطتهما على الأقل طابعاً مشتركاً، فريداً بين جبال أطلس وجبال الهيمالايا: تداخل الديانتين اللتين تتواجهان في كل مكان آخر على جانبي الحدود.